

العبر والحكم في خلق السماوات والأرض

..... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. قد أخبر الله تعالى بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ولو شاء لخلقها في لحظة فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وجعل في خلقها عبرة وعظة كما قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَيَّاتِ } هذه الآية وما بعدها في آخر سورة آل عمران آيات عظيمة ذكر الله تعالى في أولها خلقه لهذه السماوات والأرض، وذكر أن فيها لعبرة للمتفکرين وأيات للمعترين وهذا ما يذكره الله في كل حالاتهم ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أنزلت عليه هذه الآيات العشر في ليلة من الليالي يكتفي طوال ليله ثم قال: { وَبِلِّ مَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَنْفَكِرْ فِيهَا } . وسئل بعض السلف الرواة ما المخرج من هذا الويل فقال: أن يقرأها وهو يعقلها يعني يقرؤها وهو حاضر اللب حاضر القلب عند قراءته لها؛ ذكر الله تعالى فيها أن خلق السماوات والأرض فيه آيات ولكنها آيات دلالات وعجائب في هذه المخلوقات، ولكن إنما يعتبر بها ويذكر أولى الآيات يعني أهل العقول الذكية الذين ينتهون لما أمروا به ويفكرون في هذه الآيات؛ ولذلك مدحهم وذكر شيئاً من صفاتهم بقوله: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَيَّاتِ } من هم { الَّذِينَ يَذَكُرُونَ اللَّهَ قَيْمَانًا وَفُعُودًا وَعَلَى جُنُوْبِهِمْ } أي دائماً ذكرهم لربهم لا ينقطعون عن ذكره ولا ينسغلون بغيره بل هم دائماً يذكرونه ويفكرون في خلقه، لهذا قال: { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ويقولون { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ } إذا تفكروا في هذه المخلوقات العلوية والسفلية عرفوا أن الله ما خلقها لهوا ولا خلقها باطلاً فإنه سبحانه يتزه عن أن يخلق شيئاً عبثاً، فما خلق الإنسان عيناً ولا خلق هذه المخلوقات عيناً كما قال الله تعالى: { وَمَا يَبْيَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْتَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } يعني أن الإنسان إذا تفكرا في خلقها اعتبر بذلك وعرف فيها الآيات عرف أنها آيات عظيمة ودلائل كبيرة تدل على عظمته من خلقها. إذا نظرت في هذه الأرض التي هي واحدة من سبع أرضين وهي صغيرة بالنسبة إلى نعمة خلق الله تعالى، إلى نعمة ما خلقه فإنك بذلك تعتبر وتقول: سبحان من خلقها ومن أوجدها فتسير فيها أياماً وتتجد فيها اختلافاً فتجد أرضاً مستوية ليس فيها ارتفاع ولا منخفض، وتتجد بعدها أرضاً رملية فيها كتب وفيها مرفعات، ثم تجد بعدها أرضاً جبلية فيها صخور وفيها جبال إما مستوية وإما شاهقة مرتفعة، وتتجد أحياها أرضاً فيها شباب وفتها أودية وفيها أشجار، وتتجد الأشجار والنباتات تختلف من بقعة إلى بقعة وهكذا أيضاً قول الله تعالى: { وَبَتَ فِيهَا مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِالْحَقِّ } فإذا تفكروا في هذه الدواب الراحة والطائرة الكبيرة والسائرة الكبيرة والصغيرة لا شك أنها عبرة وموعظة. ذكر الله تعالى أيضاً الليل والنهار يعني هذا الليل والنهار آياتان من آيات الله تعالى لو شاء الله كما في بعض البلاد يجعل الليل كله دائماً ولو شاء يجعل النهار دائماً وهذا قال تعالى: { قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا } يعني دائماً مستمراً { مَنْ أَنْهَى اللَّهُ عَلَيْكُمُ الظَّهَارَ سَرْمَدًا } فهو سبحانه جعل هذا الزمان منقسم إلى ليل ونهار يجعل الليل يستقرن فيه وبهدوء وتحدا حرکاتهم ويريحون أنفسهم بعد التعب وبعد الكد وبعد النقلب في أمورهم وفي مصالحهم، يجعل الليل لهم سكناً كما في قول الله تعالى: { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الظَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ أَنْهَى اللَّهُ عَلَيْكُمُ بِصَبَرَةً } أي ينكم بمثواه تمثون فيه ويسعدوا من فضلاته لتسكنوا في الليل ولستغوا من فضله في النهار؛ فالنهار هو محل العمل ومحل التقليب في الحرفة والأعمال وما أشهدها والليل جعل سكناً. كذلك أيضاً جعل لكل منهما آية قال الله تعالى: { وَخَلَقْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَيْنِ فَمَحَّوْنَا آيَةَ الظَّهَارِ وَجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبَصِّرَةً } فآية النهار في هذه الشمس التي إذا طلعت أضاءت الدنيا وأضاءت ما على وجه الأرض وأشرقت ما على نهار ظاهر يتلقبون في حاجاتهم ويدهبون فيما يريدونه، فإذا غابت عنهم أظلم عليهم الزمان؛ وأية النهار هي الشمس وأية الليل هي القمر، إذا جاء الليل فإنهم ينفعون بالقمر حيث يضيء لهم بعض الإضاءة بعض الإضاءة فيستبدلون به ويسيرون على ضوء إذا احتاجوا إلى الليل هذه الشمس وهذا القمر آياتان من آيات الله قال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ } يعني أنها آيات الله الشمس والقمر جعلهم الله تعالى دائين قال تعالى: { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِيْنَ } أي يسران دائين لا يتوقفان. أحياها يجتمعان في أول الشهر فيكون القمر مقارباً للشمس وبعد ذلك يتأخر عنها كل يوم منزلة من المنازل إلى أن يكون في الشرق والشمس في الغرب، وذلك عندما يتصف الليل جعل الله تعالى عندما يتصف الشهرين بذلك يغيرون الأوقات فيعرفون اليوم بهذه الشمس، ويعرفون الأسبوع بالشمس ويعرفون الشهر بالقمر، وكذلك يعرفون السنة بهذا القمر يعرفونها بهذا القمر وذلك قوله تعالى: { وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنَّيْنِ وَالْحِسَابَ } أخير تعالى بأنه جعل هذه الآيات حتى يعرفوا بذلك معلوم أن الشمس تطلع كل يوم وتغرب كل يوم أي مساء كل يوم تغرب على قوم وتطلع على آخرين فإذا طلعت علينا فقد غربت عن غيرنا وذلك لأن الأرض متعدة فتغرب عنا وتطلع على آخرين على غيرنا وهكذا دأباً. وكذلك أيضاً القمر قد يطلع عندنا في وقت من الأوقات ويكون غالباً على غيرنا قد يطلع عند غيرنا يكون طالع علينا يجعلهما الله تعالى سائرين دائين { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُذْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا الظَّهَارُ سَابِقُ النَّهَارِ } كل منها يسير بتسير الله تعالى جعل الشمس لها فلما تسير فيه حتى تقطع هذا الفلك في يوم وليلة أي تقطع هذه المسافة الطويلة في يوم وليلة يجعل القمر أيضاً في فلك وذلك قال تعالى: { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُذْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا الظَّهَارُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي أَنْتَ لَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ } أي الليل والنهار والشمس والقمر كل منها مركبة في فلك تسحب يعني سائرة كما ركبت وكما سخرت، هكذا أخبر بأنه سخر الشمس والقمر كل أي كل منها يجري؛ يجري يعني يسير في جهته التي يسير فيها قال تعالى: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْقَرٍ لَهَا } أي تسير سيرها الله الذي يسيرها الله وركبها والقمر يجري أي يسير وهذا قال: { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمَّى لَا هُوَ الغَيْرُ الْعَقَارُ } فذكر جريانهما، وجريانهما على ما قدر الله وعلى ما يسره وكل منها يسير السير المعتمد إلا أن سير الشمس أسرع من سير القمر. وهذا إذا كان في أول الشهر يكتون مجتمعين في المغرب نراهما غالباً جميعاً، ثم في اليوم الثاني نرى القمر تأخر عنها قليلاً، ثم في اليوم الثاني تأخر عنها، ثم في اليوم الثالث تأخر إلى أن يصير القمر في المشرق والشمس في المغارب في اليوم الرابع لا يزال يتأخر إلى أن تدركه مرة ثانية يعني تقرب منه فعند ذلك يكون ذلك علاماً على تمام الشهر، وإذا كان كذلك فإن الله تعالى قد ذكر أن للشمس مشارقاً أو مغارباً وكذلك للقمر قال الله تعالى: { قَلَّا أَفْسِمُ يَرْبُّ الْمَسَارِقِ وَالْمَغَارِبِ } كيف يكون لها مشارقاً ومغارباً مشارق الشمس ومشارق القمر وغارب كل منها: أي الذي يشرق ويغرب وذلك لأن الشمس تارة تطلع من جنوب الأرض فيما نرى وتارة تكون من وسطها وتارة تكون من الشمال. وكذلك أيضاً القمر تارة يطلع من جهة الجنوب وتارة من وسط الأرض وتارة من جهة الشمال وهذا الغروب نشاهده مثلاً أنه يغرب من جهة الشمال ثم في أشهر مشارق والمغارب قليلاً إلى أن يغرب في وسط المغرب ثم يسير قليلاً قليلاً إلى أن يغرب في جهة الجنوب فلأجل ذلك جمع الله المشارق والمغارب { قَلَّا أَفْسِمُ يَرْبُّ الْمَسَارِقِ وَالْمَغَارِبِ } وثناهما أيضاً في قوله تعالى: { رَبُّ الْمَسَرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغَارِبِينِ } المراد مشارق الشمس في الشتاء ومحشرها في الصيف، وكذلك مغرب الشمس في الشتاء، مغربها في الشتاء في جنوب الجهة الغربية وفي الشتاء في شمالها فثناهما في هذه الآية { رَبُّ الْمَسَرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغَارِبِينِ } وأفردهما أيضاً في قوله تعالى: { رَبُّ الْمَسَرِقِ وَالْمَغَارِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَالَتْجَدَهُ وَكِيلًا } أي المراد بالمشرق الشرقي كله الذي يشرق منه الشمس والمغرب كله الذي يغرب منه القمر. يقول الله تعالى: { وَلِلَّهِ الْقُشْرُ وَالْمَغْرِبُ } أي له الشرق والغرب أي كله من كله، لله المشرق الذي هو جهة الشرق ولله المغرب الذي هو جهة الغرب لهذا قال موسى لفرعون { رَبُّ الْقُشْرِ وَالْمَغَارِبِ وَمَا يَبْيَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } أي ربها ومالكها ومالك ما بينهما، والذي بينهما هم الخلق كلهم فإنهم بين المشرق والمغارب يعني على وجه الأرض التي فيها شرق و فيها غرب.